الزجاج السوري المموه بالميناء والذهب

في العصر الوسيط ـ ١

الاستاذ محمد أبو الفرج العش

لمحة تاريخية عن تطور صناعة الزجاج وزخرفته :

اشتهرت سورية كبلد منتج للزجاج منذ القديم ، وازدهرت صناعته بصورة خاصة في العهد الروماني حيث كان انتاجها بعد اكتشاف طريقة نفخ الزجاج فيها واسعاً جدا ومتقناً وكثير التنوع ، وظلت سورية محافظة على مركزها الممتاز في العهد البيزنطي . لم يغير الحكم العربي الاسلامي شيئاً كثيراً من وضع سورية الاقتصادي ، ربما حصل شيء من الفتور بسبب انعزال سورية عن آسيا الصغرى وحوض البحر الأبيض المتوسط الى فترة من الزمن ، الا أن استقرار الحكم العربي والفتوحات الكبرى في العهد الأموي فتح آفاقا واسعة جداً أمام الإنتاج السوري فعاد دولاب العمل الى سيرته الاولى بل ازداد نشاطاً ، وأخذت مراكز الانتاج القديمة التي ضعفت قليلاً الى الانتعاش والازدهار .

اننا في الواقع لا نلاحظ فرقاً كبيراً بين صنعة الزجاج في العهد الأموي وبين صنعته في العهد البيزنطي . وقد استطعنا أن نتأكد من هذه الحقيقة من نتائج تنقيبات جبل أسيس (١)

(١) قامت بالتنقيب في ثلاثة مواسم البعثة الأثرية الألمانية برئاسة الدكتور كلاوس بريش . وحفظت اللقى في المتحف الوطني بدمشق . نشر الدكتور بريش تقريراً مبدئياً في مجلة الحوليات الأثرية ج ١٣ في عام ١٩٦٣ وسيظهر التقريران الثاني والثالث في الأعداد القادمة .

وتنقيبات الرصافة (١) وتنقيبات خربة المفجر (٢) ، وسنتأكد من هذه الحقيقة أكثر عندما نحصل على نتائج التنقيبات التي بدأ بها الدكتور أوليغ غرابار (٣) في قصر الحير الشرقي سنة ١٩٦٤ ، وسيوالي عمله في السنين القادمة .

نلاحظ أن زخرفة الزجاج بالخيوط الزجاجية والحبيبات والأقراص المضافة (من لون الزجاج أو من لون مغاير) بدأت منذ العهد الروماني ، واستمرت في العهد البيزنطي والعهد العربي (٤) ، كما أن الزخرفة بالخيوط الزجاجية البيضاء أو الملونة الغارقة في الوسط الزجاجي الأزرق الشديد أو النبيذي القاتم أو الأسود عرفت منذ القديم ، ووجد منها تحف في قبور الفراعنة في مصر تعود الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وما بعده . واستمرت في مصر وسورية في القرون السابقة واللاحقة للميلاد . عادت هذه الصنعة في العهد العربي الاسلامي ، وقد عرفنا منها أنواعا (٥) : الخيوط فيها مستقيمة أو متموجه أو منزلقة بالتسحيب أو مفصصة Festonné لقد استمرت هذه الصنعة في أكثر المدن السورية : فقد وجد منها في الرقة مع آثار القرنين ٣ — ٤ هـ = ٩ — ١٠ م ومع آثار القرون ٥ — ٧ هـ = ١١ — ١٣ م ، ووجد منها في دمشق مع آثار (٦) عربية تعود الى القرون ٥ — ٧ هـ = ١١ — ١٣ م كما وجد منها مع آثار القرن

---

(١) قامت بالتنقيب في الرصافة بعثة أثرية ألمانية سورية مشتركة برئاسة الدكتور كولويتز .

(٢) قام بالتنقيب الأستاذ هاملتون والدكتور ديمتري برامكي . نشر فقط بعض القمريات الزجاجية الدكتور برامكي في مجلة : Quarterly of Départment of Antiquties in Palestine. X, 4.

(٣) نشر الدكتور غرابار GRABAR أستاذ الفن الإسلامي في جامعة ميتشيغان تقريره الأول في الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر من مجلة الحوليات الأثرية السورية ؛ إلا أننا لا نستطيع أن نأخذ فكرة عن الزجاج الأموي في الموسم الأول ، سننتظر نتائج أعماله المقبلة .

(٤) Lamm, Mittellterliche Gläser und Steinschaitarbeiten aus dem Nahen Osten, II, Tafel (20—24)

(٥) Lamm, ibid, II, Tafel (29 — 32)

(٦) أجرت المديرية العامة للآثار والمتاحف تنقيباً في محلة الحريقة بدمشق قام بها الأستاذ عدنان البني والسيد نسيب صليبي ، نشرا معاً تقريراً عنه في مجلة الحوليات الأثرية ج ١٤ سنة ١٩٦٤ ص ١٦٥ - ١٧٢ . الأجزاء الزجاجية منشورة في اللوح ٤ .

٨ هـ = ١٤ م (سأنشر نتيجة هذا الاكتشاف) ، ووجد منها في تنقيبات حماه[١] مع آثار القرنين ٧ — ٨ هـ = ١٣ — ١٤ م . لقد انتقلت هذه الصنعة الى أوربة ، ويوجد منها أوان تعود الى القرنين[٢] ١٧ و ١٨ م .

ان الزخرفة بالخيوط الزجاجية والحبيبات والخيوط الزجاجية الغارقة في الوسط الزجاجي تعتبر ممهدة للزخرفة بالمينا التي هي مدار بحثنا . وقد ظهرت في القرن ٣ هـ = ٩ م زخرفة جديدة استعملت على الخزف والزجاج ، ألا وهي الزخرفة ذات البريق المعدني ، وقد بدت على الزجاج الشفاف غير الملون بلون أحمر أصهب أو بلون عسلي ، تعتبر هذه الصنعة بحق ممهدة أيضاً للزخرفة بالميناء على الزجاج ، وقد أوردت كتب الفن الاسلامي أمثلة منها ، نكتفي بالاشارة[٣] اليها . يذكر الأستاذ لام أن لهذه الزخرفة أصل في العهد الروماني الا أن سميث يرى أنه ابداع عربي . عثر في تنقيبات الرقة التي أجرتها المديرية العامة للآثار والمتاحف ، وقام بها السيد نسيب صليبي بين سنتي ١٩٥٠ - ١٩٥٦ على أوان متعددة وكسور ذات بريق معدني[٤] ، وهي الآن

---

(١) Riis et Poulsen avec le concours de Hammershaimb, HAMA, IV.2, pp.61—69, fig.s:186—216

(٢) Trois millénaires d'art verrier, liège, Musée Curtius, 1958, pp. 193, 195, figs 523—530

(٣) Lamm, ibid, II, Tafel (34, 37, 40—49).

Migeon, Manuel d'Art Musulman, 1927, II, pp. 118 et 167.

Smith, Glass from the Ancient World (the R. W. Smith Collection) 1957, pp. 257 — 263, figs : 519 — 529.

ديماند : الفنون الإسلامية ترجمة أحمد محمد عيسى ص ٢٣٥ .

الدكتور زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ ذكر أن أول من لفت النظر إلى الزجاج ذي البريق المعدني هو الدكتور بتلر وأيده مارتان وغالوا .

Butler, Islamic Pottery; Martin, Lustre on glass and Pottery; Gallois in Bürlington Magasine Oct. 1928 p. 186.)

(٤) وصفت هذه الآثار في دليل معرض المكتشفات الأثرية الأول المقام في المتحف الوطني بدمشق سنة ١٩٥٢ ، ص ٢٥ وأشار اليها الدكتور سليم عادل عبد الحق في مقاله المنشور باللغة الفرنسية في مجلة الحوليات الأثرية السورية ج ٨ و ٩ لعامي ١٩٥٨ - ١٩٥٩ ص ١٤ ، إلا أنه لم يذكر أن زخارفها ذات بريق معدني . ونشر أيضاً المقال نفسه في :

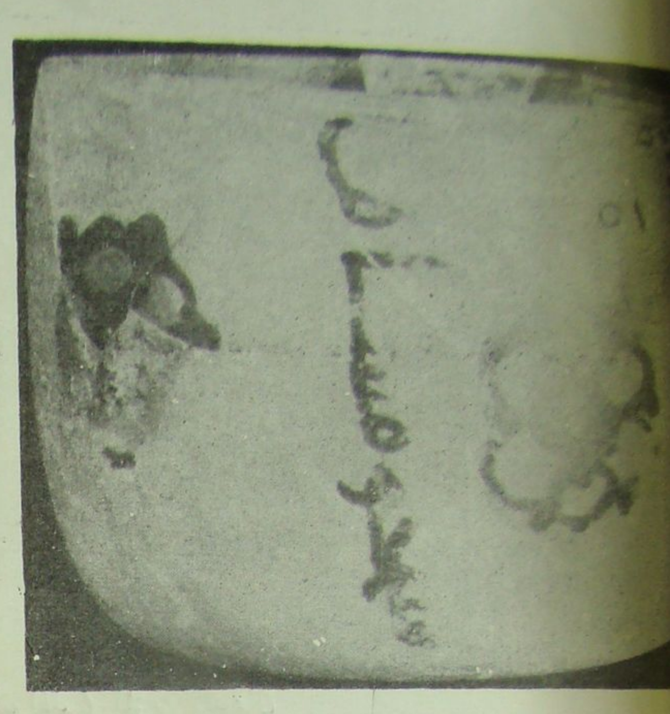
Annales du ler Congrès des « Journées Internationales du Verre » , Liège 20 — 24 août 1958, pp. 79—96

محفوظة في قاعة الرقة (متحف دمشق) . زينت هذه القطع بزخارف نباتية . وشبه هندسية تميل الى العفوية . زين قدح منها بكتابة كوفية قريبة من الخط المقوّر المعروف في أواخر القرن ٢ هـ = ٨ م وأوائل القرن ٣ هـ = ٩ م[1] . ويهمنا هنا هذا القدح ذو الرقم ر ٥١ ب (الصورتان ١ و ٢ — اللوح ١) الذي يحمل خمسة سطور من الكتابات تتناوب مع خمس ورود ، إحدى هذه الكتابات « عمل بدمشق » هذه كتابة هامة جدا لأنها تفيدنا أولا بأن منطقة الرقة كانت وثيقة الصلة بسورية وخاصة دمشق ، ثانياً بأن صنعة الزجاج ذي البريق المعدني كانت موجودة في دمشق كما هي موجودة في مصر . لم يشر حتى الآن في أي مرجع تاريخي قديم أو أثري إلى إنتاج دمشق هذا النوع من الزجاج في ذلك الوقت . ويوجد أيضاً من تنقيبات الرقة كسرتان من إناء واحد (ر ٥١٨ ج) مزينتان من كلا الوجهين (وهذا نادر جداً) بزخرفة ذات بريق معدني أضيف اليها زخرفة نصف شفافة ، إما أنها ذات بريق معدني أيضاً أو نوع من الدهان (الصورة ٤ — اللوح ١) .

وجد أيضاً في تنقيبات الرقة أجزاء قرص كبير من الزجاج الرقيق العسلي اللون (ر ٤٤٩ ح (الصورة ٥ ـ اللوح ٢) رسم عليه بدهان أسود عرق نباتي مورق . لم أجد أيضاً مثل هذا في أي مرجع للزجاج ، وهو جدير بالاشارة اليه كتجربة ممهدة للتمويه بالميناء ، في مرحلة سابقة يمكن أن نقدرها بالقرن ٤ هـ = ١٠ م .

وهناك صنعة أخرى تمت الى بحثنا رافقت التمويه بالميناء فيما بعد ، تلك هي تذهيب الزجاج عرفت هذه الصنعة في العهد البيزنطي على نطاق ضيق ، ولكن بأسلوب يختلف عما حدث فيما بعد ، إلا أنه يجدر الاشارة اليه يوجد في الفرع البيزنطي (متحف دمشق) قنديل من الزجاج الشفـــاف المتعدد الألوان يحوي ضمن مادة الزجاج رقائق من الذهب . يوجد في المتــاحف

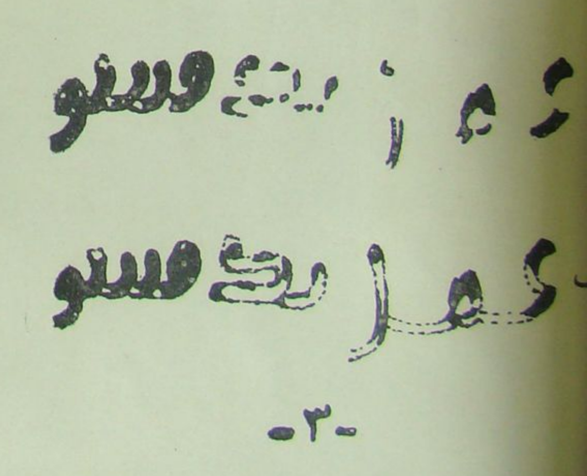
(١) وجدت هذه الكسور في القصر ـ ب ـ الذي وجد فيه جزء من ملاط جداري كتب عليه جزء من اسم المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) .



قدح من الزجاج ذي البريق المعدني وجد في الرقة
من القرن (٣ هـ = ٩ م) عليه كتابة

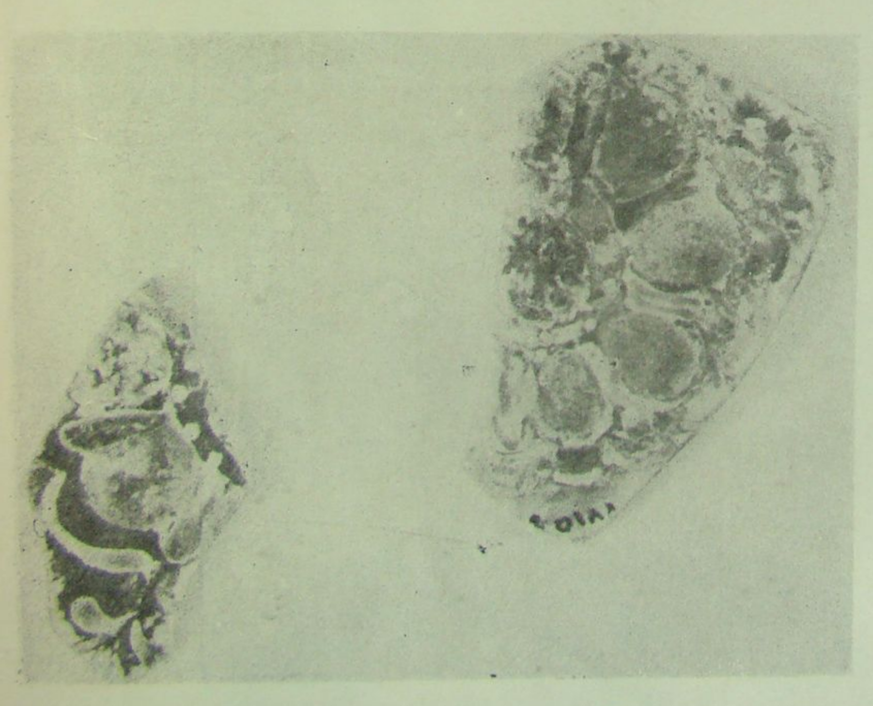


٢ - القدح نفسه (الصورة ٢) عليها كتابة غير واضحة تقول :
« عمل بدمشق »



-٣-

ا - في الأعلى أثر كتابة « عمل بدمشق » على القدح
ب - في الأسفل ترميم لأثر الكتابة المرقومة على القدح



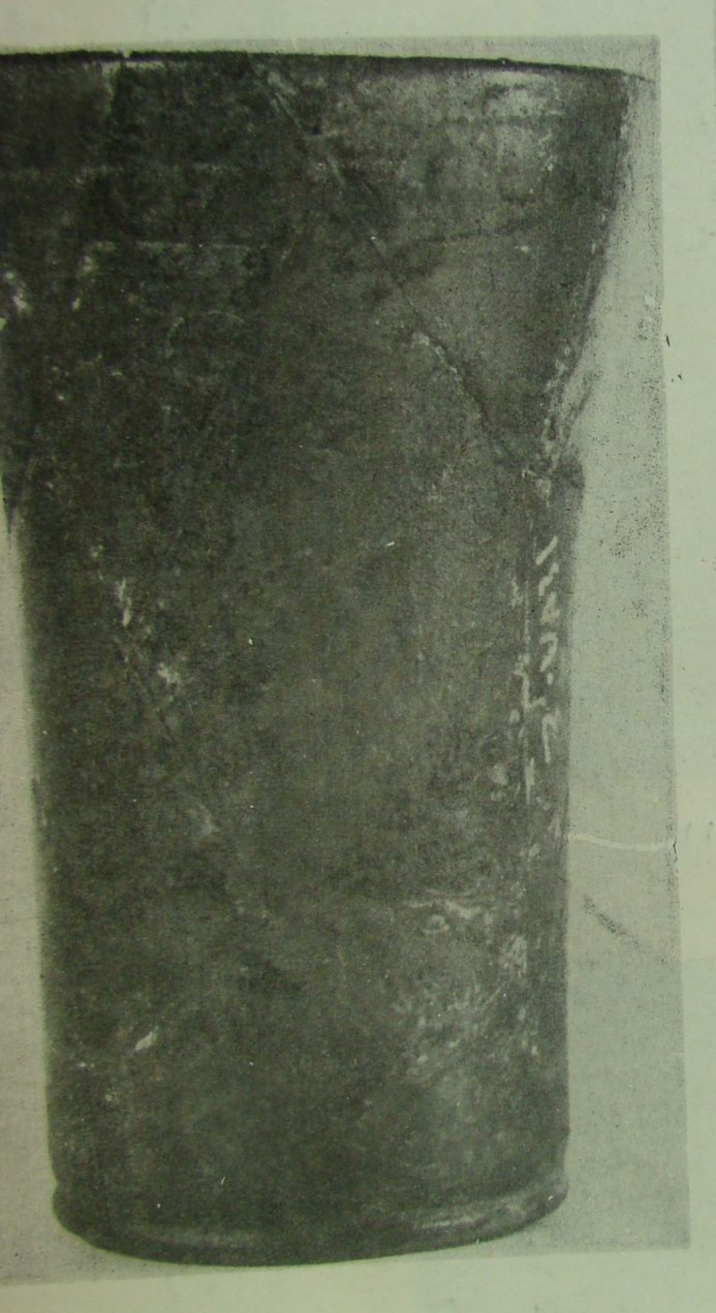
٤ - جزءان من إناء نفيس من الزجاج ذي البريق المعدني .
الزخرفة من الداخل والخارج

★

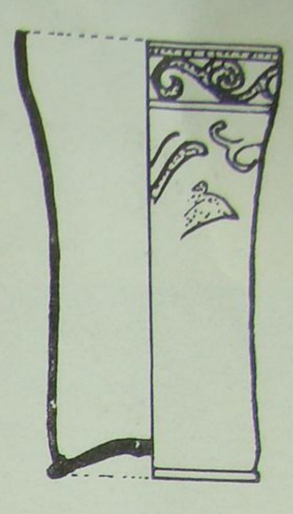


٥ - كسور من (زجاج النوافذ) المزين بالدهان

٨ – مطرة من الزجاج المزين بالميناء الباردة

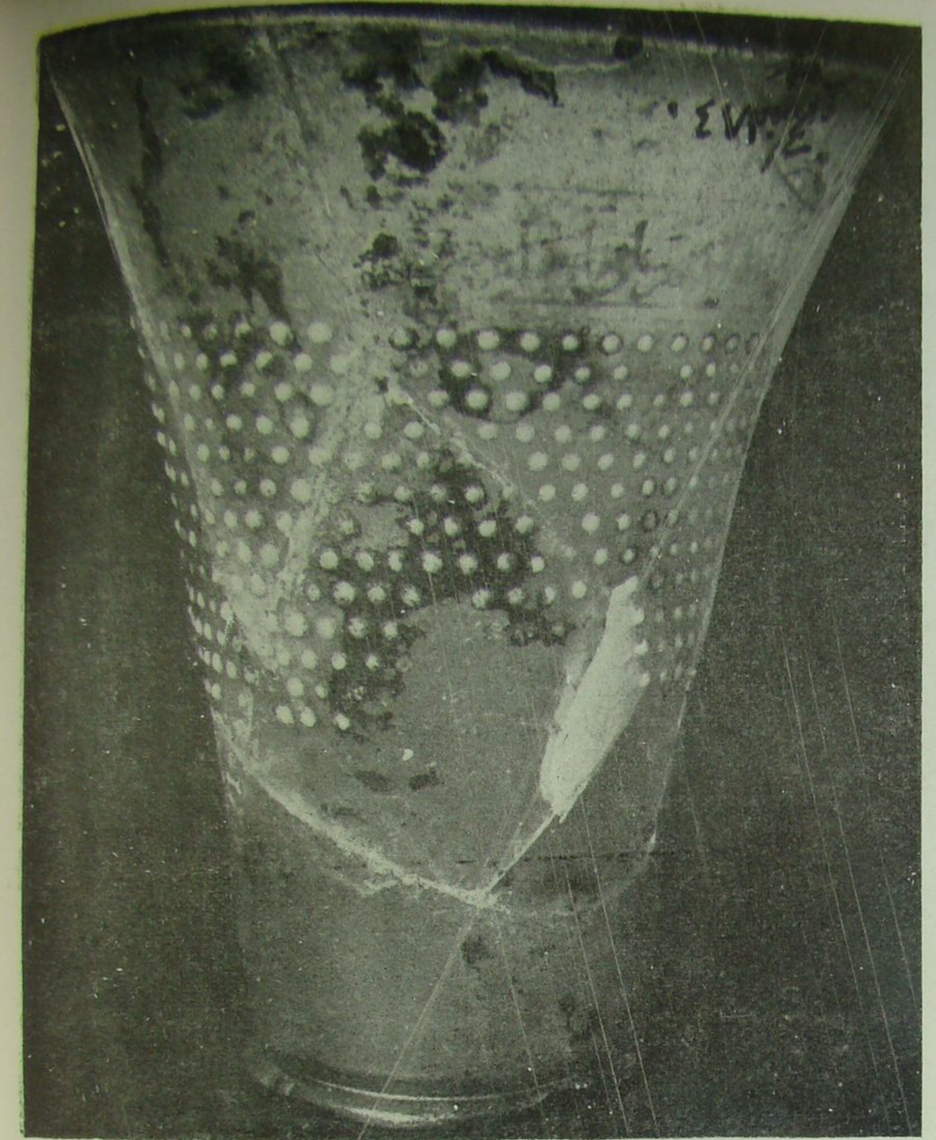


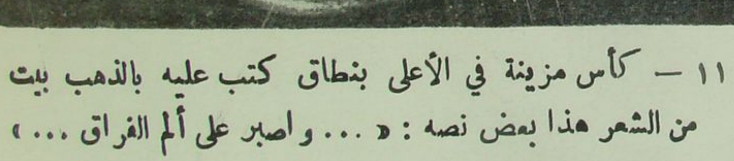
٩ – كأس من الزجاج الأزرق مزينة بزخارف مذهبة
(ربما كانت من القرن ٥ هـ = ١١ م)



- ١٠ -

١٠ – رسم للكأس المنشورة في اللوح ٣ – الصورة ٩





١١ – كأس مزينة في الأعلى بنطاق كتب عليه بالذهب بيت من الشعر هذا بعض نصه : « ... واصبر على ألم الفراق ... »



١٢ – مصباح مموه بالميناء والذهب (متأخر) ربما كان من صناعة مورانو في القرن ١٦ م

الهامة في العالم : المتحف البريطاني ، ومتحف المتروبوليتان في نيويورك ومتحف كورننغ للزجاج في ولاية نيويورك أمثلة عن تضمين الرقائق الذهبية في الوسط الزجاجي تعود الى العهد البيزنطي . ويوجد في الفرع نفسه من متحف دمشق الواح صغيرة من الزجاج مزينة بزخرفة هندسية مطلية بالذهب(١) .

ذكر الأستاذ شارل ديل (٢) نقلا عن الراهب تيوفيل الذي عاش في آخر القرن ١١ م أن البيزنطيين كانوا يصنعون الأواني من الزجاج الأزرق ثم يزينونه بعروق مورقة وعصافير ورسوم انسانية مذهبة تحت غشاء زجاجي .

يبدو مما ذكره الوشّاء (٣) أن الكتابة بالذهب على الأواني الزجاجية كان معروفاً في عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ — ٧٨٦ م) . ذكر السيد سميث (٤) قارورة زرقاء مذهبة ، حدد عصرها بالقرن ١١ م ، اكتشفت في دوين Dwin في الاتحاد السوفييتي على مقربة من الحدود التركية والايرانية . لدينا كأس كبيرة وهامة في متحف دمشق وجدت في

---

(١) يوجد في مجموعة السيد سميث مثيل لهذه الألواح . ونعتقد أن جميع هذه الألواح من مصدر سوري واحد ...
Smith, ibid, p. 220, fig. 446.

(٢) Th. Diehl. Manuel d'Art Byzantin (1926), II, p. 710.

(٣) الوشّاء (القرن ٤ هـ = ١٠ م) كتاب الموشّى ، طبعة Brünnow ص ١٢٧ و ١٨٧ . أدين إلى الأستاذ (لام) بالاعتماد على أكثر النصوص الوثائقية التاريخية التي ذكرها في كتابه الشهير عن الزجاج في الشرق الأدنى . والتي راجعتها في الأصول ، كما أدين إلى الأستاذ قاسم طوير بترجمة بعض النصوص الألمانية . وأدين إلى السيدة أنيسه سامي بترجمة بعض النصوص اللاتينية والإيطالية .

راجعت النص في الموشى (تحقيق كمال مصطفى) مصر ١٩٥٢ م ص ٢٤٥ وإليكم ما كتبت علية بنت المهدي على قدح بالذهب :

اشرب على وجه الغزا ل الأغيد الحسن الدلال
اشرب عليه وقل له يا غلّ ألباب الرجال

ذكر الوشّاء أيضاً عدة نصوص تكتب على القناني والكاسات والأقداح والأرطال والجامات بين ص. ص. ٢٤٣ - ٢٤٦ .

(٤) Smith, ibid, pp. 261—263, fig 526

تنقيات [١] حماة مزينة بالتذهيب فقط وهي تعود إلى القرن ٧ هـ = ١٣ م ، أي أنها معاصرة لصنعة التمويه بالميناء والذهب ولا تعود الى الوقت المبكر المشار اليه ؛ وكذلك وجدنا في مسكنة كسور كأس من الصنعة نفسها تعادل عصر كأس حماه .

وأخيراً ننتقل الى صنعة تمويه الزجاج بالمينا وتذهيبه . يقول الاستاذ ميجون [٢] : ان التمويه بالمينا معروف في العهد البيزنطي . لكنه لم يدلل على ذلك . ويقول السيد سميث [٣] : إن الزجاج المدهون بزخارف ملونة معروف في البيزنطي ، لكنه لم يكن يشوى بعد الطلي . أي أن زخارفه لم تكن ثابتة . إذاً ليست هي الصنعة التي تمّت في العهد الاسلامي . ويقول الاستاذ شارل ديل [٤] عن لسان الراهب تيوفيل أيضاً : إن الفنان إذا أراد أن يغني الزخارف المذهبة على الأواني الزجاجية الزرقاء يضع بينها عروقاً نباتية مزهرة بالميناء الملونة .

يذكر المقّري [٥] : أن أمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع أهدى الخليفة الاندلسي عبد الرحمن (الثالث ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ = ٩١٢ — ٩٦١ م) قدحاً من الزجاج عليه رسم القيصر . يجوز أن يكون الرسم قد نفذ بالدهان أو بالميناء الملونة الباردة . وقد عرف العرب التمويه بالميناء الباردة : لدينا في متحف دمشق قمقمان أزرقان نفيسان يحملان الرقمين ٤٠٦٠ / ع/١٤١٠ و ١٠٩٠٧ / ع/٣٩٦٠ (الصورتان ٦ و ٧ اللوح ٢) عليهما أثر ميناء بيضاء يزول بالحك الخفيف ، وهما يعودان في نظرنا الى القرن ٤ — ٥ هـ = ١٠ — ١١ م . كما يوجد لدينا القارورة ذات العروتين ١٠٣٢٢ / ع/٣٨١٦ فهي أيضاً مزينة بالميناء الباردة (الصورة ٨ — اللوح ٣) .

---

(١) Riis et Poulsen, ibid, P. 81, fig. 245

(٢) Migeon, ibid, P. 120

(٣) Smith, ibid, P. 230

(٤) Sh. Diehl, ibid, P. 710

(٥) المقري (- ١٠٤٢ هـ = ١٦٣٢ م) : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (طبعة Dozy, Dugat, Krehl et Wright) ج ١ ، ص ٢٣٧ .

نفهم من كل ذلك أن صنعة تمويه الزجاج بالميناء والذهب نشأت في العهد الاسلامي من تكامل الصنعات الممهدة لها التي ذكرناها في الفترات السابقة . أقدم ما نعرفه عنها ذكره المقريزي (١) عندما تحدث عن بيع كنوز المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ = ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) أيام الضائقة الكبرى فقال : « ..... وأن صحوناً من المينا كان يباع الواحد منها بمئة دينار أو أكثر» وقال يصف تحفة على شكل طاووس : « ......وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على ألوان ريش الطاووس » .

الجملة الأولى لا تدل صراحة على الزجاج المموه بالمينا ، الا أن الجملة الثانية أقرب إلى فهم صنعة التمويه بالميناء والذهب ومع ذلك ليست صريحة بشكل يطمئن الباحث إلى انه هو الزجاج المموه بالميناء والذهب . وإذا ثبت أن البيزنطيين توصلوا إلى تمويه الزجاج بالميناء ، فإنه حدث هذا في آخر القرن ١١ م ، ولا نستبعد أن يكون العرب توصلوا إلى ذلك أيضاً في العصر نفسه : لدينا في متحف دمشق الكأس الأزرق ع/١٤٧٨٠ (الصورة ٩ والرسم ١٠ = اللوح ٣) كنت نسبته إلى الزجاج السوري الأزرق (القرن ٧ هـ = ١٣ م) ، لا أستبعد أن يكون من القرن ٥ هـ = ١١ م لأنه قريب من وصف الراهب تيوفيل للزجاج الأزرق المموه .

وجدت صناعة الزجاج المموه بالميناء والذهب في البلاد العربية والإسلامية التي اشتهرت بانتاج الزجاج كالرقة وحلب ودمشق وبغداد والقادسية والموصل والاسكندرية والفسطاط وبعض مدن إيران . ولا نستطيع أن نجزم في أي من هذه البلاد بدأت هذه الصناعة أولاً ، علما ان صناعتي الزجاج والخزف معروفتان فيها جميعاً بشكل متعادل متكافىء . ومن الصعب أن نقول : « إن إحدى هاتين الصناعتين كانت في بلد أجود أو أرقى من بلد آخر » ولكن مع ذلك لا نستبعد أن تكون هذه الصنعة نشأت في العراق وذلك لأهميته من الناحية السياسية والاقتصادية . يقول الأستاذ ميجون (٢) إن كلمة (العراق) بقيت في اللغة الاسبانية للدلالة على الزجاج (iraga , irage) يعني ذلك أن الكلمة انتقلت إلى الأندلس مع الزجاج العراقي في وقت مبكر واكتفى الناس بالعراقي للدلالة على الزجاج ، كما اكتفي بكلمة الصيني والمالقي والقاشاني للدلالة على الخزف المشهور في هذه البلاد .

---

(١) المقريزي (- ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ م) : كتاب المواعظ والاعتبار ، طبعة بولاق ، ج ١ ص ٤١٤ وما بعدها .

(٢) Migeon, ibid, II, P. 126

قال المؤرخ الصيني[1] شو - كيو - فيي سنة ١١٧٨ م في معرض حديثه عن بغداد « إن الزجاج المموّه بالميناء والذهب من انتاج هذه المدينة » . وامتدح ابن جبير[2] وابن بطوطة[3] الزجاج العراقي بصورة عامة دون التصريح عن الزجاج المموه . كما نوّه الادريسي[4] بأهمية انتاج القادسية الزجاج العراقي ، وقد ذكرها ياقوت[5] الحموي وأبو الفداء[6] .

بعد كل هذا يحتمل أن تكون هذه الصنعة بدأت في العراق وانتقلت الى الرقة وحلب ثم عمّت مدن سورية ومصر المنتجه للزجاج ، ولكن مع ذلك شهرة سورية في انتاج الزجاج خلال القرنين ٧ و ٨ هـ = ١٣ و ١٤ م أهم من شهرة أي بلد آخر ولقد ذكر هرتس[7] قول الأستاذ فان برشم : « إن الزجاج المموه بالميناء كان يصنع على الخصوص في سورية » .

من الملاحظ أن أقدم وأبسط الأمثلة من الأواني الزجاجية المموهة بالميناء والذهب تلك التي وجدت في الرقة ومسكنة وحلب ، فهي مزينة بصفوف متخالفة من الحبيبات أو النقط من الميناء البيضاء أو الملونة بالأزرق الفيروزي مع نطاق أو أكثر مكتوب بالذهب مباشرة بدون أن تكون الكتابة على مهد من الميناء (الصورة ١١ - اللوح ٤) ثم أخذ الصناع يتفننون بالزخرفة ويغنونها بالألوان والعناصر النباتية المحورة والهندسية والكتابات بالخط الكوفي والثلث وأشباه الكتابات الكوفية المتشابكة ورسوم الأشخاص والمباني ومشاهد الصيد والطرب والحرب . من الجائز

---

(١) Ch'ou K'ü fei, Ling-wai-tai-ta (translated by Hirth and Rockhill) p. 137

(٢) ابن جبير (ذكر في مكة سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م الزجاج العراقي البديع النقش) الرحلة ، (طبعة Wright and de Goeje) ص ٨٣ .

(٣) ابن بطوطة (٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) تحفة النظار (طبعة Defrémery et Sanguinetti ج III ص ٨ و ١١) (Migeon, ibid, p. 126)

(٤) الادريسي (٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م) نزهة المشتاق (ترجمة Jaubert) ج II ص ١٤٦) .

(٥) ياقوت الحموي (٦٢٨ هـ = ١٢٢٩ م) معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld) ج IV ص ٩)

(٦) أبو الفداء (- ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) تقويم البلدان (طبعة Reinaud et de Slane) ص ٢٩٩ .

(٧) هرتس بك : دليل دار الآثار العربية - القاهرة ١٩٠٩ ترجمة علي بهجة ص ٢٩٥ .

ــ كما قلنا سابقا ــ أن تكون هذه الصنعة بدأت في العراق وايران، إلا أن ازدهارها العظيم حصل في الرقة وسورية الشمالية ثم شمل سورية كلها ومصر، وعرف العالم الانتاج السوري على الأكثر.

ومن أجل دراسة الزجاج المموه بالميناء والذهب يمكن أن نتبع تصنيف الأستاذ لام، فنجعل الزجاج في زمر حسب الانتاج المحلي فنقول: نمط الرقة، نمط حلب، نمط الزجاج السوري الفرنجي، الزجاج السوري الأزرق، نمط دمشق، نمط الفسطاط، نمط الزجاج المتأثر بالفن الصيني. سنسير حسب هذا التصنيف ونتأثر خطا الباحث الكبير، ولكن يحسن الاشارة إلى انتقال أهمية هذه الصناعة من مركز إلى آخر ضمن تطور الأحداث التاريخية.

١ ــ الساحل السوري:

وقعت البلدان الساحلية والقريبة من الساحل المشهورة منذ القديم بانتاج الزجاج كصور[1] وعكا وطرابلس وانطاكية تحت حكم الصليبيين منذ القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي وانعزلت تقريباً عن المدن الداخلية. إن هذا الانعزال فتح أمامها الاتصال بالأسواق الأوربية فلم تمت هذه المراكز بل ظلت منتعشة، إلا أنها ابتعدت عن التأثر بالتيارات الفنية الجديدة كفن التمويه بالميناء والذهب، ولا نعرف أنها اشتهرت بانتاج هذا النوع في القرنين السادس والنصف الأول من السابع الهجري = ١٢ ــ ١٣ م.

بعد هجوم المغول على حلب، هاجر صناع الزجاج إلى دمشق ومصر كما سيأتي معنا، ومن الجائز أن يكون هاجر بعضهم إلى مراكز إنتاج الزجاج في الساحل السوري، وصنعوا الزجاج الفرنجي الذي تحدث عنه الأستاذ (لام) وحدد عهده ما بين ١٢٦٠ ــ ١٢٩٠ م، وخصص له الألواح

---

(١) ذكر الأستاذ ميجون Manuel (1927) II, p. 124 أن غيوم أسقف صور (١١٣٠ ــ ١١٨٨ م). Guillaume de Tyr (archevêque) لاحظ نشاط صور في صناعة الزجاج في سورية. وقد ذكرت مزايا الزجاج السوري في المرجع التالي:

Wilhelm von Tyrus (+ 1190), Historia, lib. XIII, cap. III (ed. Bongars), p. 835

٩٩ — ١٠٣ (١) مع زمرة الفسطاط ، ونرى أن زمرة الزجاج السوري الفرنجي تظهر مميزاته بوضوح في اللوح ٩٩ وفي الرقمين ٧ و ٨ من اللوح ١٠٣ فقط ، أما الأشكال الأخرى المرسومة في الألواح فإنها تدل على مدى احتفاظها بعناصر الصنعة الأولى الأصيلة المعروفة في الداخل .

بعد خروج الصليبيين نهائياً من الساحل السوري وعودة الاتصال بين الساحل والداخل فان هذه المراكز استمرت بالانتاج والتأثر بصناعة الزجاج المموه في الداخل بعد سنة ١٢٩١ م .

٢ ـ الرقة وحلب :

عرفت سورية الداخلية والشمالية والشرقية كثيرا من الاستقرار والانتعاش الاقتصادي في ظل حكم نور الدين محمود والأسرة الأيوبية في النصف الثاني من القرن ٦ هـ = ١٢ م . حتى سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م . في هذه الفترة بالذات نشأت صناعة الزجاج المموه بالميناء والذهب في المرحلة الأولى التي اشتهر فيها انتاج الرقة وحلب . ولقد وصل هذا الإنتاج الى درجة رفيعة من التقدم في ظل مملكة حلب الأيوبية في عهد الملك الظاهر غازي وسلالته في النصف الأول من القرن ٧ هـ = ١٣ م . ونستطيع أن نقول إن الحكم الأيوبي المستقل في المنطقة الشمالية والشرقية هيأ لحلب الاستقرار والنمو الاقتصادي بينما كانت دمشق تابعة الى حكام مصر سياسياً وإدارياً فلم تكن في مستوى حلب من حيث الازدهار والرفاه .

في هذه الفترة تفوقت صناعة الزجاج في الرقة وحلب تفوقاً عظيما ، وأبدعت أجمل وأنفس التحف ، ولا نستبعد أبدا أن يكون هذا الازدهار قد شوّق الرسامين الفرس أو العراقيين أن يأتوا الى حلب ، أو أن يكون البلاط الحلبي قد استدعاهم .

يحدثنا القزويني عن أهمية سوق الزجاج في حلب (٢) في تلك الفترة ، وعن زجاج (٣)

---

(١) Lamm ibid, Tafel (99—103)
Riis et Poulsen, ibid, p. 72.

(٢) القزويني (توفي سنة ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م) كتاب الآثار (طبعة وستنفلد) ج ٢ ص ١٢٣ .

(٣) القزويني (المرجع نفسه) ج ٢ ص ١٢٧ ولعتقد أنه يقصد بالزجاج المصابيح الزجاجية . وربما كانت هذه المصابيح من صنع حلب في المرحلة الأولى ، أو أنها صنعت بدمشق في عهد الوحدة بينها وبين حلب قبيل الكارثة المغولية .

الجامع الأموي بدمشق المموه بالميناء والذهب والمزين بكتابات قرآنية محفورة على الميناء. وذكر سعدي الشيرازي (١) على لسان تاجر متنقل بين البلاد النائية ...« أنه يحمل الفولاذ الهندي الى حلب ، ويأخذ الزجاج الحلبي الى اليمن ....» وذكر الغزي (٢) عن صاحب كتاب تراث الأوراق عن صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن ناجز الموسيقي في كلامه عن قائد هولاكو حين نزل عنده قال : « عملت له مجلساً ملوكياً ، وأحضرت له الأطعمة الفاخرة في الأواني المذهبة من الزجاج الحلبي وأواني الفضة .....»

هذه بعض النصوص التي تنوّه بأهمية الزجاج الحلبي وخاصة منه المموّه بالميناء والذهب في المرحلة الأولى التي تنتهي بهجوم المغول على حلب ونهبها وتخريبها .

ولم يقتصر الأمر على هجوم المغول فلقد شن أيضاً هيتوم ملك سيس الأرمني (٣) في كيليكيا غارة على حلب في سنة ٦٦١ هـ = ١٢٦٢ /٦٣م ، وكان آنئذ الملك الظاهر بيبرس مشغولاً في فتح مدينة صفد التي كانت في أيدي الصليبيين ، وبعد الانتهاء من فتح صفد وجه الى سيس جيشاً فتحها سنة ٦٦٤ هـ = ١٢٦٦ م .

عاشت حلب في النصف الثاني من القرن ٧ هـ = ١٣ م مروّعة (٤) بسبب هجوم المغول عدة مرات عليها : في سنة ٦٦١ هـ = ١٢٦٢ م و ٦٧٩ هـ = ١٢٨٠ م و ٧٠٠ هـ = ١٢٩٩ م ، وكانت آخر مرة في سنة ٧١٢ هـ = ١٣١٢ م . ولقد طغى في هذه الفترة الذعر على الحلبيين

---

(١) سعدي الشيرازي (في سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) غلستان ، ترجمة Defrémery pp. 177 et s.

(٢) الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب – المطبعة المارونية في حلب ١٩٢٦ ج ١ ص ١١٣ (أدين بالعثور على هذا النص إلى زميلي الأستاذ شفيق الإمام) .

(٣) المقريزي (– ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ م) كتاب السلوك – القاهرة ١٩٣٦ ، ج ١ ، القسم الثاني ص ٥٥١ . ويحسن مراجعة مقالي المنشور في مجلة Ars Orientalis الأمريكية المجلد الخامس .
Les bois de l'ancien cénotaphe de Khalid Ibn al-Walid à Ḥims.

(٤) Sauvaget, Alep (B, A. H, XXXVI, 1941), p. 159 et s.

حتى أنه لمجرد سريان اشاعة بهجوم جديد كان السكان يفرون الى طريق دمشق. عرفت حلب في هذه الحال تقهقرا اقتصاديا مريعا ، الأمر الذي جعل أكثر الصناع يهاجرون الى دمشق حيث انتقل اليها مركز الثقل السياسي في عهد الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) كما سافر بعضهم الى مصر ؛ ومن الجائز ـ كما مر معنا ـ أن يكون بعضهم قد هاجر الى الساحل السوري ، وكان لهم الفضل في انتاج زمرة الزجاج السوري الفرنجي .

نستطيع أن نقول في آخر القرن ٧ هـ = ١٣ م عادت الحياة من جديد الى حلب وعني المماليك البحريون في ترميم سورها وأبنيتها حتى أن صناع الزجاج في أرمناز (ضاحية صور) هاجروا اليها بعد سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م ، وعمروا مستعمرة لهم غربي حلب أطلقوا أيضاً عليها اسم أرمناز (١) وأخذوا يصنعون الزجاج بدون زخرفة ، ويرسلونه الى حلب لتمويهه وتذهيبه . وهنا يمكن أن نقول بدأت المرحلة الانتاجية الثانية التي امتدت طوال القرن ٨ هـ = ١٤ م .

في المرحلة الثانية امتاز زجاج دمشق على زجاج حلب ، ومع ذلك فقد ظلت حلب شهيرة بانتاج الزجاج .

وهنا يمكن أن نورد ما ذكره حافظ أبرو (٢) سنة ١٤١٥ م بتحفظ عن أهمية الزجاج الحلبي وصفاته وأناقته والاتجار به الى جميع الأقطار .

٣ ـ دمشق :

لما كانت صناعة الزجاج المموه بالميناء والذهب مزدهرة في حلب ، لم يكن يعني هذا أنه لم يكن في دمشق أي انتاج من هذا النوع ، بل كانت حلب متفوقة ، وكان انتاجها على مستوى أرقى وأوسع ، لأن ما ذكره القزويني وأشرنا اليه في الحاشية (٣) ص ٤٦ ربما يعطينا دليلاً على وجود هذه الصناعة في دمشق في المرحلة الأولى ، وليس من البعيد أن تكون صناعة الزجاج المموه في دمشق بدأت تتقدم منذ أن توحدت دمشق وحلب تحت حكم الملك الناصر صلاح الدين يوسف الثاني منذ سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م .

---

(١) Schefer, Album des Musées de Province, I, p. 30
أشار ياقوت (ج ١ ص ٢١٧) الى أرمناز (صور) ولكن يبدو أن أرمناز (حلب) قديمة .

(٢) حافظ أبرو (سنة ١٤١٥ م) Schefer, p. 33

لم تتأثر دمشق كثيرا من هجوم المغول سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م ، كما حدث في مدن سورية الشمالية . وقد استطاع المماليك أن ينقذوها بعد تغلبهم على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م ، وارتفع شأن ركن الدين بيبرس في العالم الاسلامي كله ، وصار من المأمول أن يضيّق على الصليبيين الذين ما زالوا مستولين على الساحل السوري ، وأن ينقذ البلاد من شر الأجانب .

لم يخيب الملك الظاهر بيبرس الأمل ، واستطاع أن يخوض حروباً كثيرة ضد الصليبيين ، ويستخلص منهم بلدا بعد آخر وحصنا بعد آخر ، وأشاع في سورية الاستقرار والأمن ، واتخذها مركزاً لأعماله العسكرية ؛ وقام فيها باصلاحات شاملة في جميع المجالات . في هذا العهد أخذت صناعة الزجاج المموه بالميناء والذهب ترتقي في دمشق ، واستمرت بالانتاج متأثرة أسلوب حلب المعروف في المرحلة الأولى مستفيدة من خبرة المعلمين الحلبيين الذين هاجروا اليها . ظلت صناعة الزجاج تتكامل في دمشق وخاصة بعد هجرة بعض معلمي الزجاج من صور اليها بعد سنة ٦٩٠ هـ =١٢٩١ م .

صار لدمشق أسلوبها الخاص وطابعها المميّز ، ويحدد الأستاذ لام انتاج نمط دمشق بين سنتي ١٢٥٠—١٣١٠ م ، وهو تحديد مقبول ، ولو كنا لا نميل كثيراً الى تحديد التطور الصناعي بسنين ثابتة . في هذه الفترة ارتقت صناعة الزجاج المموه بدمشق ، وتفوقت على سواها من البلاد المنتجة ، وأصبح الزجاج من أهم السلع المصدرة (١) .

٤ ـ مرحلة التأثر بالفن الصيني :

تعود العلاقات بين البلاد العربية والصين الى أول العهد العباسي ، ولقد ذكر المؤرخ الصيني شاو ـ جو ـ كوا (٢) عن تو هوان Tu Huan مؤلف كتاب King hing ki والذي أسر من قبل العرب سنة ٧٥١ م وعاش عشر سنوات في البلاد العربية . ثم عاد الى كانتون ذكر في كتابه : « الصناع السوريون ماهرون وأذكياء وخاصة صناع الفضة والزجاج ، لا يوجد في الدنيا من

(١) Symon Simeonis, Pilgerfarht 1325 und folgende Jahre Itineraria Symon Simeonis (ed. Nasmith), p. 43.

(٢) Shau Ju Kua, Shu fan chû (translated by Hirth and Rockhill) pp 108 f

يعادلهم في انتاجهم » استمرت العلاقات طوال العهد العباسي مع الصين الا أنها اتسعت كثيرا في القرن ٨ هـ = ١٤ م ، وجرى التبادل التجاري بين الشرقين الأقصى والأدنى على نطاق واسع ، وأقبل السوريون على اقتناء الخزف الصيني الجميل ، وأقبل الصينيون على اقتناء الزجاج السوري والعراقي وخاصة الزجاج المموه بالميناء والذهب . وصارت البعثات التجارية العربية تذهب الى الصين ، وتؤسس لنفسها مراكز وجاليات وخاصة في مدينة كانتون (١) ، كما أن البعثات التجارية الصينية صارت تأتي الى الموانىء العربية حاملة البضائع الصينية وعائدة بالتحف(٢) العربية وأهمها الزجاج المموه بالميناء والذهب .

يحدثنا هيرث (٣) Hirth أن صناعة الزجاج في الصين بدأت فعلا في القرن ١٥ م بسبب الاحتكاك بين الشرقين الأدنى والأقصى ، ويذكر أن رئيس البعثة التجارية الصينية اصطحب معه عند عودته الزجّاجيين من البلاد العربية . ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من التحف الزجاجية العربية المموهة بالميناء والذهب الموجودة في المتاحف العالمية والمجموعات الخاصة قد اقتنيت من بلاد الصين .

هذه العلاقات بين الشرقين أدت الى تأثر الفنانين السوريين بالفن الصيني الى مدى بعيد ويلاحظ هـذا التأثر على مقياس واسع في الخزف (٤) السوري وفي زخرفة الزجاج المموه بالميناء والذهب .

كان الفنانون العرب قبل هذا التأثر قد وصلوا في تطورهم الفني الى المرحلة الكلاسيكية الكمالية ، وكانوا يميلون اذ ذاك الى تحوير العناصر النباتية والحيوانية ، ، فصاروا بعد التأثر بالفن الصيني يميلون الى القرب من الطبيعة والواقع في تمثيل عناصرهم الزخرفية . كانوا يحبسون عناصرهم الزخرفية ضمن نطاقات ومناطق وعصائب وحوائق بشكل رتيب ، بعد هذا التأثر أطلقوا سراح بعض زخارفهم من إسارها ، وأخذوا يوزعونها برشاقة وخفة على الاناء كله ، ويمثلون عليها بعض المشاهد الطبيعية ، مع الاحتفاظ ببعض الأسس والقواعد السابقة للزخرفة .

---

(١) Encyclopédie de l'Islam; Chine

(٢) Shau Ju Kua, ibid, pp. 102, 103 and 135

(٣) Hirth, Chinesische Studien, I, p. 15

(٤) يبدو هذا التأثر أكثر ما يكون في صحن كبير محفوظ في متحف دمشق اكتشف أثناء تنقيبات حماة :
Riis et Poulsen, ibid, p. 224, fig. 777.

هذه المرحلة هامة جدا في حياة الفن العربي الاسلامي أكسبته اتجاها جديدا أضيف الى الثروة الفنية العظيمة التي اكتسبها خلال عدة قرون سابقة ، حتى أنه يجوز لنا أن نقول إن القرن ٨ هـ = ١٤ م يعتبر بحق العصر الذهبي للفن العربي . ولا بد لنا من الاشارة إلى أن عوامل عديدة ساعدت على هذا التقدم نذكر منها :

آ - نظام النقابات الذي يحتم على الصناع اتقان الصناعة ليجوز لهم أن يمارسوا المهنة . ادى هذا الى تداول المهنة في الأسرة الواحدة (١) أباً عـــن جد بحيث تحفظ الأصول وتزيد المكتسبات مع مرور (٢) الأيام .

ب - رقابة الدولة على انتاج الزجاج المموه بالميناء والذهب ووضع الشعارات (٣) عليه تلبية لحاجات الملوك والأمراء . يمكن تشبيه هذا الدور الذي كانت فيه الرقابة للدولة بدور النظام الميركنتلي Mercantilisme الذي طبق في فرنسا في عهد لويس ١٤ .

ج - انتعاش الحياة الاقتصادية في سورية ومصر بسبب اتساع النطاق التجاري مـــع الشرق من جهة ، ومع الغرب مـــن جهة أخرى . اعتاد الصليبيون خلال اقامتهم في سورية على استهلاك بضائع الشرق الأقصى والشرق الأدنى ، وكانوا والتجار الايطاليون وسطاء في نقل هذه البضائع الى أوربه ، لم تنقطع العلاقات بعد خروجهم بل زاد الطلب على البضائع الشرقية ، ولعب التجار الايطاليون دوراً كبيرا في الوساطة التجارية .

د - كثرة الاستهلاك الداخلي بسبب الرفاه الاقتصادي .

---

(١) Frescobaldi, Visggio, 1384–85 (ed. Menzi), p, 101

(٢) هذا السبب الذي كان عاملاً في تقدم الصناعة هو نفسه كان عاملاً في جودها في دور التقهقر .

(٣) يذكر الأستاذ ريس أن الفنانين الذين يرسمون الأواني الزجاجية المموهة بالميناء والذهب كانوا ملحقين ببلاط دمشق : Riis et Poulsen, ibid, p, 73

ذكر الأستاذ فان برشم (١) في بيان أرسله الى الأستاذ شمورنس بمناسبة صدور كتـــابه عن الزجاج (٢) اعتمادا على العمري (٣) يقول فيه : ان مصر وسورية (يقصد المدن السورية) والعراق وآسيا الصغرى كانت تستورد من دمشق أجمل ما يصنع فيها خصوصاً القسي والنحاس المكفت والزجاج المذهب ...

يحدثنا بوغجيبونسي (٤) Poggibonsi الذي أقام في سوريـــة بين سنتي ١٣٤٥ — ١٣٤٦ م عن أهمية سوق الزجاج المموه بالميناء والذهب في دمشق الممتدة على طول الجامع الأموي قرب سوق النحاسين. يحدثنا هيد (٥) Heyd على لسان ڤاغجيو إي لونغي سانتي عن زجاج دمشق في سنة ١٣٨٤ — ١٣٨٥ م فيقول : « ان صناعة الزجاج كانت في دمشق مزدهرة ».

ذكر في لوائح مقتنيات قصور الملوك والأمراء في أوربة كثير من التحف الزجاجية الدمشقية أو المنسوبة الى أسلوب دمشق. نورد منها على سبيل المثال : لائحة مقتنيات شارل الخامس (٦) ملك فرنسا (١٣٧٠ — ١٣٨٠ م) ، لائحة مقتنيات شارل السادس (٧) ملك فرنسا (١٣٨٠ — ١٤٢٢ م) ، لائحة مقتنيات لويس دوق دانجو (٨) (١٣٦٠ — ١٣٦٨ م) ، لائحة مقتنيات أسرة مديتشي (٩) ١٤٥٦ — .

(١) ذكر الأستاذ هرتس بك في دليل الآثار العربية ص ٢٩٠ في الحاشية هذا القول.

(٢) Shmoranz, Old Oriental gilt and enamelled Glass vessels, Wien and London, 1899

(٣) العمري (ـ ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م) مسالك الأبصار.

(٤) Migeon, ibid, II, p. 125 (Libro d'altramare di fra Niccolo Poggibonsi, Bologne, 1881, II,p.21

ومن الجدير بالذكر أن ابن بطوطة (تحفة النظار ، طبعة القاهرة ١٩٣٧ م) ج ١ ، ص ٥٥ يعين سوق الزجاج في شرقي الجامع الأموي ويقول : « ... وصناع أواني الزجاج العجيبة ... » أدين بهـذه الإشارة إلى زميلي الأستاذ عبد القادر الريحاوي.

(٥) Heyd, Histoire du Commerce de Levant, I, 1930

(٦) Labarte, Inventaire de mobilier de Charles V, Roi de France, pp. 208, 223, 224, 240. 245, et 256

(٧) Gerspach, L'art de la verrerie, p. 110

(٨) De laborde, Inventaire de Louis, Duc d'Anjou, Notice des émaux de Louvre, II, p' 28

(٩) Müntz, Les Collections des médicis (Inventario (di) tucte le cose che sow proprie di... Piero Cosino de'medici, p. 26)

مرحلة التقهقر في سورية :

ان سنة الكون تقوم على التطور المستمر ، هذا الرفاه العظيم الذي أنعش سورية في القرن ٨ هـ = ١٤ م والذي أدى الى كثير من الاستقرار جلب عليها بلاء كثيرا ، هاجمها المغول بقيادة الطاغية تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م فسلبها وأهانها وأحرق مدنها ، وزادها سوءا أنه جردها من أحسن معلمي صناعتها وفنانيها ، ونقلهم الى مركز سلطته في سمرقند .

هذه مصيبة كبرى من نمط غريب وهو نقل معلمي الصناعة من البلاد المزدهرة . لقد تكررت هذه المأساة في عهد السلطان العثماني سليم الأول ، فقد نقل أيضاً من سورية ومصر معلمي الصناعات إلى الآستانة . وهناك مصيبتان أخريان أيضاً : أتت إحداهما من الحكام المماليك ، والأخرى من الغرب . كان حكم المماليك حسناً في بادىء الأمر ، عندما كانت تفيض البلاد بالخير في القرن ٨ هـ = ١٤ م ، فمهما كان نظام (١) الضرائب مجحفاً ، ومهما كان الحاكم متسلطاً وحكمه جائراً ، فقد كانت الموارد الكثيرة تسد النفقات الكبيرة ، ولكن بعد كارثة تيمورلنك وتقهقر البلاد الاقتصادي ، لم يقدر الحكام هـذا الظرف السيء ، فكانوا يشتدون في جباية الضرائب من جهة ، ويسيئون معاملة التجار الأوربيين الذين كانوا يأتون الى الموانىء السورية والمصرية ، ويفرضون عليهم الأتاوات والغرامات ، الأمر الذي دعا التجار الأوربيين الى التفكير باكتشاف الهند (٢) بحراً عن طريق رأس الرجاء الصالح . فمنذ اكتشف الغرب طريق الهند ووضع يده على منابع الثروة ، بدأت موارد التجارة الشرقية تجف بالتدريج .

لقد كان من نتائج هذه المصائب التقهقر ، ولكن لا يعني هذا أن صناعة الزجاج ماتت تماما ، فقد وجدت بعض القطع البسيطة (لدينا بعضٌ منها في متحف دمشق) ؛ ولكن لا نجد بين نفائس الزجاج المموه السوري قطعة هامة تعود الى القرن ٩ هـ = ١٥ م . لم تشعر مصر في ذلك القرن بالتقهقر الذي أصاب سورية ، لكنها هي أيضاً لم تنتج تحفاً هامة .

---

(١) كان نظام الضرائب في العهد المملوكي يقوم على أساس اقطاعي ؛ إذ توزع الضرائب على اقطاعات ، ويعطى كل أمير مملوكي اقطاعاً يجبي ضرائبه مباشرة من سكان اقطاعه لصالحه وصالح مماليكه . لا يقدر المملوك ظروف سكان اقطاعه ، ويعتبر هذه الضرائب حقاً له ؛ لذا كان النظام ظالماً .

(٢) في ذلك الوقت (القرن ١٥ م) ذرّ فجر النهضة في اوربة ، وأفل نجم العرب حتى أخرجوا نهائياً من الأندلس .

يذكر غومپانبرغ (١) Gumpenberg الذي زار سورية سنة ١٤٤٤ م وسنة ١٤٤٩ م أن معامل الزجاج لاتزال عاملة في أرمناز (ضاحية صور) وفي الخليل (حبرون) ؛ وكذلك يذكر فابر (٢) Faber الذي زار حبرون سنة ١٤٨٣ م أهمية معاملها ويتحدث بعجب واعجاب عن طريقة صنع الزجاج . الا أن برتراندون دولا بروكيير (٣) Bertrandon de la Broquière الذي زار دمشق سنة ١٤٣٢ م لم يذكر شيئاً عن صناعة الزجاج فيها .

٦ ـ صناعة الزجاج في مصر :

مع أن موضوعي محصور في سورية ، لكن لا بدّ من التنويه بأهمية الصناعة في مصر . لقد كانت الاسكندرية شهيرة بانتاج الزجاج في العهد الروماني واستمرت تِنّيس (٤) ثم الفسطاط (٥) في العهد الاسلامي متفوقة وخاصة في العهد الفاطمي (العصر الذهبي لانتاج البلور الصخري) وقد وجد في تنقيبات الفسطاط كثير من القطع الأثرية والكسور الزجاجية المموهة التي صنعت في مصر أو استوردت من العراق وسورية ، وكانت أساس دراسة الأستاذ لام . لا ندري اذا كانت مصر سبقت البلاد العربية الأخرى بانتاج الزجاج المموه بالميناء والذهب . يفهم مما ذكره المقريزي وأشرنا اليه في الحاشية (٣) ص٤٢ أنه وجد ضمن تحف المستنصر صحون من المينا وطاووسان من الذهب مثّل ريشه بالزجاج المينا المجريّ بالذهب ، فهل يجوز أن تكون هذه الصنعة عرفت منذ القرن ٥ هـ = ١٠ م . من مجموع المناقشات التي دارت بين علماء الآثار حول مصدر المصابيح الكثيرة التي وجدت في مساجد مصر وحول أسبقية أي بلد في انتاج الزجاج المموه بالميناء والذهب نستطيع أن نقول : إن سورية اشتهرت أكثر من مصر في انتاج هذا النوع من الزجاج وخاصة في حلب في النصف الأول من القرن ٧ هـ = ١٣ م ، ثم ارتقت هذه الصناعة في مصر منذ

---

(١) Migeon, ibid, p. 125 (Gumpenberg), Regssbuch des heiligen Landes, Francfort, 1584, fol 239V°

(٢) Faber (Schmid) in Hebron, ibid 1483, fol 115 R°

(٣) Migeon, ibid p. 135.

(٤) المقريزي (ـ ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢) كتاب المواعظ والاعتبار (طبعة Wiet) ج ٣ ص ٢١٧ .

(٥) ناصر خسرو (أقام في مصر ١٠٤٦ ـ ١٠٥٠ م) سفرنامه . ترجمة Schefer ص ١٤٩ .

سنة ١٢٧٠ م بسبب هجرة بعض صناع الزجاج الحلبيين إلى مصر على الأرجح ، وازدادت تقدما بعد التأثر بالفن الصيني . وعندما حصلت كارثة الهجوم المغولي على دمشق بقيت مصر تنتج الزجاج المموه بالميناء والذهب في القرن ٩ هـ = ١٥ م.(١) لكن هذه الصناعة ما لبثت أيضاً أن تقهقرت في مصر في النصف الثاني من ذلك القرن .

يحدثنا براسكا (٢) الميلاني الذي حج في سنة ١٤٨٠ م أن قبطان السفينة البندقي كونتاريني Contarini كان يرسل زجاج مورانو من يافا الى دمشق لأمر داودار سورية في عهد قايتباي (٨٧٢ — ٩٠١ هـ = ١٤٦٦ — ١٤٩٦ م) . فلو كانت مصر منتجة في ذلك الوقت ، لما استورد الحاكم المملوكي في دمشق الزجاج من مورانو ، بل كان استورده من مصر .

إن آخر قطعة هامة صنعت في مصر من الزجاج المموه والمذهب هي مصباح قايتباي لاحظ فيها هرتس (٣) بك بعض الخطأ في الكتابة ، وبعض الشذوذ في صنعته ، وقد استدل من ذلك أنه ربما كان مصنوعاً أيضاً في مورانو .

٧ — انتقال صناعة الزجاج الى البندقية والمدن الايطالية :

إن هذه النقطة ليست من بحثي أيضاً ولكن لا يمكن استكمال التسلسل التاريخي دون ذكرها لا شك أن صناعة الزجاج في البندقية وخاصة الزجاج المموه بالميناء والذهب انتقلت اليها من سورية ، سواء أكان عن طريق تعلم الصناع البنادقة في سورية ، أم بواسطة نقل بعض صناع الزجاج الى البندقية ، أم في تقليد الصناعة واجراء المحاولات العديدة حتى تمّ لهم تعلمها . لقد كان البنادقة يشترون الزجاج المكسور من طرابلس الشام بكميات كبيرة لاختباره واجراء التجارب عليه وإعادة صنعه ، حتى أن المعاهدة (٤) المعقودة بين بهمون الرابع أمير أنطاكية ودوج البندقية Jacobo Contarini نصت على لزوم دفع العُشر من قبل التجار البنادقة الذين يشترونها .

(١) ابن دقاق (توفي سنة ٨٠٨ هـ = ١٤٠٧ م) كتاب الانتصار . طبع القاهرة ج ٤ و ٥ أخبر عن صناعة الزجاج في الفسطاط بعد سنة ١٤٠٠ م ..

(٢) Migeon, ibid, p. 142; Van Berchem. C. I. A. Egypte. p. 679

(٣) هرتس بك : دليل دار الآثار العربية ص ٢٩٨ .

(٤) Rey, Recherches géographiques et historiques sur la domination des Latins. p. 42

كانت صناعة البندقية في بادىء الأمر تقليداً للصناعة السورية ، وقد مرّ معنا قبل قليل قصة مصباح قايتباي . كما أن المدقق في قوائم تحف دوق بورغونيا Charles - le - Téméraire (١) لا يستطيع أن يعرف من وصف الإناء ذي الرقم ٢٧٦٤ أنه من صنع البندقية أو من صنع الشرق .

في القرن ١٠ هـ = ١٦ م نستطيع أن نقول إن صناعة الزجاج المموه بالميناء والذهب قد ماتت في الشرق وازدهرت في المدن الايطالية تماما : لقد أوصى الوزير الأكبر العثماني محمد باشا(٢) في سنة ١٥٦٩م معامل مورانو على صنع ٩٠٠ مصباح مموه بالميناء والذهب و ٨ فوانيس كبيرة ، وأرسل مع طلبه رسماً يوضح شكل المصباح . لقد عرض علينا في متحف دمشق مصباح مموه بالميناء والذهب نعتقد أنه ليس من صنع الشرق بل من صنع إحدى المدن الايطالية المقـــلدة في القرن ١٦م (الصورة ١٢ — اللوح ٤) .

وأخيراً بقيت صناعة الزجاج البسيط في مركزين ظلا ينتجان وهما : الخليل (حبرون) وصور . وقد وصف بورير(٣) في رحلته سنة ١٨٤٣م صناع الخليل وهم ينفخون المصابيح والقوارير عراة حول الفرن ، وذكر انتاجهم الأقراط والأساور الملونة والمصابيح والقناديل التي كانوا يصدرونها إلى مصر بكميات كبيرة لتزيين المساجد وبقي أيضاً مركز أرمناز (قرب حلب) ينتج الزجاج البسيط .

★ ★ ★

هذه مقدمة تاريخية لبحث الزجاج المموه بالميناء والذهب ، سيتلوها نظرات في صناعته وأساليب زخرفته ووصف للقطع الأثرية المحفوظة في المتحف الوطني بدمشق .

محمد أبو الفرج العش

---

(١) De labarde, Inventaire de Charles-le-Téméraire (+ 1477), Les Ducs de Bourgogne, II. pp. 95 et s

(٢) Yriarte, La vie d'un patricien de Venise au XVIeme siècle, pp. 147 f et 150. figs 54 et 55

(٣) Borrer, A Journey from Naples to Jérusalem, pp. 453 f.